# تطبيق الظاهراتية على التراث عند حسن حنفي

# Application of virtual phenomena to heritage when Hassan Hanafi

**الباحثة: فضيلة خالدي**

**Fadila Khaldi**

**جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2-**
**khaldifadila34000@gmail.com**

| تاريخ الإرسال:08\08\2020 | تاريخ القبول:18\05\2021 | تاريخ النشر: جويلية 2021 |
|---|---|---|

**الملخص:**

لكل حضارة تراث محفوظ تركته الأجيال السابقة، خلال الأزمنة الماضية يشمل كل ما هو مادي ومعنوي، غير أن المفكرين العرب المعاصرين تساءلوا عن كيفية التعامل مع هذا التراث، فهل ينظر إليه على أنه مستودع للأفكار والمعارف، أم ينظر إليه على أنه امتداد للحاضر وترجمة للواقع وهنا تباينت وجهات قراءات التراث، غير أن حسن حنفي تفرد بقراءته للتراث من خلال تحديد مستوييه المادي والصوري ولما كان بهذين المستويين فإن الماضي والحاضر في رأيه متصلان على مستوى شعور الفرد ولا يمكن فهم الحاضر إلا من خلال الماضي وقد وضع آليات التجديد من خلال المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة، حيث يرى أن الأصالة هي فكر على مستوى التاريخ والمعاصرة هي الواقع على مستوى السلوك ومن خلال مشروعه التجديدي أراد حسن حنفي تحويل الوحي إلى علم إنساني شامل، مؤكدا بذلك على ضرورة إتباع المنهج الظاهراتي في تحليل النصوص الدينية واستحضارها بشكلها الآني وعلى هذا النحو تغدو قراءة التراث باعتباره أشياء وتصورات تتداخل فيها التجربة بالواقع وهذا ما سنحاول توضيحه، وقد كان الهدف من الدراسة هو معرفة منهج حسن حنفي الذي أراد من خلاله تشخيص القضايا التي واجهها العالم العربي والتوصل إلى صيغة علمية ممكنة التحقق لانتشال الواقع العربي من وهدته، وذلك بإبداع أيديولوجية للإصلاح والتغيير.

**الكلمات المفتاحية:** حسن حنفي، التراث، الظاهراتية، التجديد، الحداثة.

**Abstract :**

Every civilization has a preserved heritage left by previous generations, during past times that includes everything material and intangible. However, contemporary Arab thinkers have questioned how to deal with this heritage, so is it seen as a repository of ideas and knowledge, or is it seen as an extension of the present and a translation of reality and here The views of the heritage readings varied, but Hassan Hanafi uniquely reads the heritage by determining its material and formal levels, and since these two levels, the past and the present are connected in his opinion on the level of the individual's feeling, and the present can only be understood through the past and he has put in place the mechanisms of renewal through the marriage between authenticity and contemporary , He believes that authenticity is a thought at the level of history and contemporary is the reality at the level of behavior. Through his regenerative project, Hassan Hanafi wanted to convert revelation into a comprehensive human science, stressing the need to follow the phenomenal approach in analyzing religious texts and evoking them in their immediate form. Things and perceptions in which experience overlap with reality, and this is what we will try to clarify. The aim of the study was to know the approach of Hassan Hanafi, through which he wanted to diagnose the issues faced by the Arab world and to arrive at a scientific verifiable formula to lift the Arab reality from and guide it, by creating an ideology for reform and change.

**Keywords :** Hassan Hanafi, heritage, phenomenology, renewal, modernity

**مقدمة:**

لقد حمل المفكرون العرب المعاصرون على عاتقهم مهمة النهوض بالأمة العربية، وإعادة طرح السؤال لماذا تقدم غيرنا وتخلف العرب؟ محاولين بذلك دراسة التراث كونه يتيح للأمة العربية معرفة ذاتها من أجل مواكبة التقدم والخروج من الأزمة التي أثقلت كاهلها، وتحقق حداثة إسلامية جديدة، ومن بين المفكرين الذين إهتموا بقضية التجديد وإعادة الإعتبار للأمة الإسلامية على حد سواء حسن حنفي(1935)*، من خلال وضعه آليات لمشروعه النهضوي وتبيان مظاهر هذا المشروع في التعامل مع التراث وكيف نظر إليه فهل هو مجرد حقبة زمنية مرت وانقضت أم يمكن لهذا التراث أن يعيد بناء الواقع ويجدده من خلال الربط بين الماضي

والحاضر في أفق واحد تتزاوج فيه الأصالة والمعاصرة، ومن خلال هذا المنطلق نطرح الاشكال التالي ماهي نظرة حسن حنفي للتراث؟ وماهي آليات التجديد والبناء؟ وما هو سبب استخدام المنهج الظاهراتي في قراءته للتراث؟ وماهي القواعد التي إعتمدها في هذه القراءة وماهي الإنتقادات الموجهة إليه من طرف معاصريه؟ وإلى أي مدى يمكن لهذا المشروع الذي قدمه حسن حنفي أن يحقق التجديد وخاصة في مجال اللغة والأدب؟

**أولا: مفهوم التراث في الفكر العربي المعاصر**

**أ-في اللغة:** تراث (HERITAGE) وأصله من الفعل ورث وأطلق في المعاجم اللغوية العربية على المال الذي يورثه الأب لأبنائه[i] واستخدم القرآن الكريم كلمة التراث بالمعنى نفسه الذي ورد في معاجم اللغة أي المال.

قال تعالى" وتأكلون التراث أكلا لما" سورة الفجر الآية 19 لكن مفهوم التراث في القرآن الكريم يختلف عن المفهوم المعاصر للتراث فقد توسع ليشمل كل ما تركه لنا الأولون من محسوسات ومعنويات.

و تعني الإرث أو الميراث وهي تدل على التقاليد والأمجاد القومية والشواهد الحضارية والثقافية الموروثة عن الأجداد، فنقول مثلا تراث بلد أو تراث شعب[ii]

**ب- اصطلاحا:** لم تستخدم كلمة التراث بالمعنى الاصطلاحي إلا في العصر الحديث حيث يختلف مفهوم التراث في الثقافة العربية من باحث إلى آخر حسب اختلاف مشاربهم وثقافتهم فإذا، كان الباحثون يتفقون على أن التراث ينتمي إلى الزمن الماضي ،فإنهم يختلفون بعد ذلك في تجديد هذا الماضي، فالناقد محمد عابد الجابري(1935-2010) -Al jabri يعرف التراث بأنه " الجانب الفكري في الحضارة العربية الإسلامية، العقيدة، الشريعة واللغة والأدب والفن والكلام والفلسفة والتصوف "[iii] .

والتراث بمعناه الواسع هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أيا كان نوعها، أي كل ما تركته الأجيال الغابرة من إنتاج فكري وحضاري فهو يشمل ما تراكم خلال الأزمنة من عادات وتجارب وفنون وعلوم لدى شعب من الشعوب[iv]، أما فهمي جدعان فيرى بأن التراث عبارة عن مجموعة من المواقف وليس مجموعة من المعارف[v] ونجد أيضا جابر عصفور يعرف التراث بأنه كل ما ورثناه تاريخيا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشرية التي

نحن امتداد طبيعي لها، فالتراث "ميراث انساني لجهد بشري خلفه الذين أورثونا إياه "[vi] أما طه عبد الرحمن(1944) Taha Abderrahman فيرى بأن التراث ليس مجرد تركة، إنه يلازمنا تاريخيا وواقعيا أي ليس ماضيا وفقط بل ماضي يعيش في الحاضر ولذلك في رأيه كثرت الأعمال المشتغلة بالتراث دراسة وتقويما[vii].

**ج- التراث عند حسن حنفي:**

هو ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة فهو إذن قضية موروث وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر على العديد من المستويات[viii] أي كل ما خلفه السلف من أشياء مادية أو أمور معنوية روحية، بل كل هذه العناصر حاضرة باستمرار على مستوى الوعي الفردي والجماعي، وما دام الأمر كذلك فهو يرى بأن التراث أساس التجديد لأن التجديد ما هو " إلا إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر"[ix] وهنا يعطي حسن حنفي بعدا آخر للتراث غير البعد الذي نظر إليه المفكرون المعاصرون أنه مستودع للأفكار والمعارف بل ربطه ببعد نفعي على أساس أنه تجديد وتفسير للواقع وعليه فالتراث هو ذلك الزخم الفكري والمعرفي والقيمي المتوارث من تجارب السلف، فهو يعبر عن شخصية كل أمة لما ينفرد به من خصوصيات، وبه تتوجه سلوكياتنا وتستنار عقولنا وتتناقص أخطاؤنا وتنفتح أذهاننا لابتكار كل ما هو جديد.

لكن السؤال الذي نطرحه هل هذا التراث الذي يميز خصوصية كل أمة يقتضي التمسك والاحتفاظ به أم لابد من مسايرة الأفكار الحضارية والقابلة للتطور والتجديد؟

**ثانيا: إشكالية قراءة التراث في الفكر العربي المعاصر**

قبل الحديث عن نظرة حسن حنفي للتراث يتوجب علينا أن نتناول بعض الدراسات المعاصرة للتراث بنظرة وجيزة.

**1 - قراءة التراث عند الجابري:**

إن التساؤل الذي إنطلق منه الجابري في قراءته للتراث " لماذا التراث " إذ يرى بأنه ما دام هو حاضرا فينا أو معنا فإن الانشغال به ما هو إلا إشغال الإنسان بذاته[x] فالتراث مهم لفهم الحاضر ويشترط الجابري شرطين أساسيان لقراءة التراث هما الموضوعية والمعقولية وما يعنيه الجابري

بالموضوعية هو جعل التراث معاصرا لنفسه وذلك بفصله عنا وأما ما يعنيه بالمعقولية هو جعل التراث معاصرا لنا وإعادة وصله بنا[xi].

ويعتمد الجابري على المنهج التحليلي إذ ينطلق من النظر إلى موضوعاته لا بوصفها مجرد مركبات بل بوصفها بنى[xii] أي تفكيك العلاقات الثابتة في كل بنية ليتحول ما هو ثابت إلى متغير وما هو مطلق إلى نسبي ولا يقصد بهذا التفكيك نفيا للموضوع أو الإعتداء عليه فالقراءة المعاصرة للنص التراثي تجعل منه معاصرا لنفسه أي في إطاره الإبستمولوجي والسوسيولوجي والتاريخي وربطه بالفهم والمعقولية من جهة أخرى، لهذا يرى بأن الأصالة وحدها تقليد والمعاصرة وحدها إتباع ولتجاوز هذه الآليات لابد من كسر قيود التقليد وقطع خيوط التبعية[xiii] فالجابري أخذ على عاتقه وجوب الموافقة بين التراث والحداثة والتعامل مع النصوص التراثية بآليات حداثية .

**2- قراءة التراث عند طه عبدالرحمان:**

يرى طه عبدالرحمان أن قراءة التراث تستوجب إعادة تجديد النظر وهو تقليبه ،أي كل ما ثبت في النظر الأول قد ينتفي في النظر الثاني وكل ما إنتفى في الأول قد يثبت في نظر الثاني وما يعاب عن نظر سابقيه للتراث:

**أ-** أنهم إقتصروا على النظر في المضامين، فالنص التراثي ليس جملة من الأحكام أو القضايا المجردة عن وسائل بنائها، فإذا وقف الناظر على حكم من الأحكام وجب عليه أن يقف كذلك على الوسيلة في وضعه أو تبليغه أو تقويمه فالحكم يصاغ بوصفه مضمونا عمليا ،لا بوصفه مضمونا نظريا والسبب يرجع إلى تعثر في المعرفة النظرية.

**ب-** التوسل بآليات منقولة : إعتمد أهل النظر في التراث قديما على آليات منقولة من تراث غير إسلامي ولا عربي، إما قديما أو حديثا واستعمال هذه الآليات يستوجب على الناقل أن يقوم بنقدها نقدا كافيا شاملا .

**ج-** التلويح بالعقلانية: فالعقلانية في نظرهم هي ما يراه كل واحد منهم ولا أدل على ذلك من تضارب نتائجهم وتعارض مسالكهم، كما أنهم دعوا إلى التجزئة وذلك بتقسيم التراث إلى أقسام متباينة على أن تحفظ أصلب هذه الأقسام منهجية وأكثرها فائدة وصرف ما سواها من الأقسام الضعيفة وبعدما تكلم طه عبدالرحمان عن الأسباب التي دعتنا إلى الانصراف عن النظر

التجزيئي في التراث يذكر مبادئ نظر تجديد التراث وذلك باستخراج آليات مأصولة بمعنى أصيلة فمن هذه النصوص يبين كيف عملت هذه الآليات على تشكيل مضامين هذه النصوص فإذا كان النظر التجزيئي يفصل بين أجزاء التراث فإن مقلوب هذا الفصل التفضيلي يدعو إلى الجمع بين أجزاء هذا التراث وتكميل بعضها البعض[xiv]

**3- قراءة التراث عند حسن حنفي:**

يبدأ حسن حنفي في قراءته للتراث من تحديد مستويات هذا التراث إذ يتشكل على المستوى المادي في" المكتبات والمخازن والمساجد والدور الخاصة ... فهو تراث مكتوب مخطوط أو مطبوع، له وجود مادي على مستوى أولي، مستوى الأشياء وكما يشكل أيضا مستوى صوري لأنه مخزون نفسي عند الجماهير" [xv] ولما كان بهذين المستويين فإن الماضي والحاضر في رأيه متصلان على مستوى شعور الأفراد ولا يمكن فهم الحاضر إلا من خلال الماضي.

فتحليل التراث هو في الوقت نفسه تحليل لعقليتنا المعاصرة وبيان أسباب معوقاتها والعكس صحيح، تحليل عقليتنا المعاصرة هو في نفس الوقت تحليل للتراث أي التراث القديم مكون في عقليتنا المعاصرة مما يسهل علينا رؤية الحاضر في الماضي ورؤية الماضي في الحاضر، فالتراث والتجديد يؤسسان معا علما جديدا وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك ،ووصف الماضي على أنه حاضر معاش[xvi] .

ويؤكد حسن حنفي على حقيقة التراث في كونه ليس دينا فقط وفيه يتداخل الديني والشعبي والمقدس والدنيوي وفيه يتداخل الصحيح والموضوع، التاريخي والأسطوري، المروي والخيالي، الكل يكون مخزونا في اللاشعور التاريخي للأمة وفي ذاكرتها الجماعية[xvii] ، فالتراث ليس بالدين لأن التراث ظاهرة حضارية ثقافية والحضارة تتكون في الزمان والمكان وبفعليهما فالدين جزء من التراث.

وهذه الرؤية للتراث حتمت على حسن حنفي إعادة قراءته وبنائه قصد التوصل إلى مشروع يرتقي بالتراث إلى زماننا الراهن ويسايره ويكون بذلك قد جدد في التراث، بإعادة بناء التراث العربي الإسلامي بشكل عام والتراث الفلسفي بشكل خاص بإعادة بناء " علومه وأبنيته وحلوله واختياراته وبدائلها الممكنة هي تغيير الظروف كلية من عصر إلى عصر ومن فترة

الى فترة.... هناك إذا فترتين متميزتان في تراثنا القديم وفي حضارتنا الإسلامية الأولى الفترة القديمة والثانية الفترة الحديثة الأولى اكتملت فيها الحضارة في دورتها الأولى والثانية مازلنا نشاهدها "[xviii].

**ثالثا: التجديد كحـل للنهوض بالأمة:**

انتقد حسن حنفي وبشدة النظريات العلمية الخالصة ،التي تستهلك الأفكار الجاهزة ويدعو إلى إعمال الفكر الذي من خلاله تتغير النفوس لإصلاح الواقع ،إذ يقول" والتعبير عن الواقع بأسلوب مباشر يفهمه الواقع نفسه ويؤثر فيه وليس بأسلوب العلمية الخالصة فلا يمكن مخاطبة الجماهير مثلا عن مشاكلها بمعادلاتها وصل إليها الباحث بالرياضة البحتة أو بنظرية المجموعات... فالعلم دعوة وليس بحثا خالصا"[xix] .

وهذه الإستراتيجية حسبه تصنع التطور والتجدد لأنها مرتبطة بالعقل والنقل والواقع ، فالتغيير ينطلق من الواقع بكشف أسباب تخلفه ومعوقات تقدمه وبهذا يصنع الإنسان التاريخ ويدخل في مضمار السبق الحضاري، فيثبت ذاته ويبني حضارته ويغير واقعه إلى الأفضل وذلك من خلال الربط بين العقل الذي يعي ذاته والنقل الذي يقصد به ماضي الأمة وتراثها والواقع المعاش المعبر عن جميع مجالات الحياة.

ويؤكد حسن حنفي أن من أسباب عدم التغيير هو الكتابات الفارغة من المعنى وتعدد الآراء إذ يقول " قد سئم الفكر العربي المعاصر من المداخل الأيديولوجية للواقع المعاصر، لا فرق بين ليبرالية وقومية وماركسية في تنظير الواقع والتحديات مستمرة وتحرير الأرض لم يتم، وحرية المواطن لم تتحقق، ووحدة الأمة ما زالت بعيدة المنال والعدالة الاجتماعية طموح لم يتحقق والتنمية المستقلة مجرد أمل والدفاع عن الهوية حلم وحشد الناس وتجنيد الجماهير معدوم "[xx]

فمهمة الفكر هي معالجة وتشخيص الأزمات التي يواجهها الواقع والحرص على الفعل لتغيير الوضع نحو الأفضل، ولأجل التغيير والنهوض الفكري والسياسي والأخلاقي والإجتماعي لابد من وعي التراث القديم ووعي التراث الوافد إلينا وهذا ما يسعى إليه حسن حنفي " بناء القديم كله ليكون قادرا على مواجهة تحديات العصر والإنتقال من الإصلاح إلى النهضة وذلك بالإعتماد على سلطة العقل واجتهاد المحدثين، فالتراث ليس قيمة في ذاته إلا

بقدر ما يعطى من نظرية علمه في تفسير الواقع والعمل على تطويره، ويمكن توظيف التراث ليكون نظرية للعمل وموجها للسلوك وذخيرة قومية يمكن إكتشافها وإستغلالها وإستثمارها من أجل إعادة بناء إنسانيته وعلاقته بالأرض... فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها، والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه"[xxi] فلا سبيل لتقدم الأمة وازدهارها إلا إذا كان وعي بتخلفها وفي هذا يقول " إن وعي واقعة الانهيار هو شرط الدخول في دور جديد يدعو أبناءه إلى تخطي الواقعة وإلى السير في طريق التقدم نحو الأفضل " [xxii]

**رابعا: آليات تجديد التراث**

**1-إعادة بناء التراث:**

اقترح حسن حنفي مشروع حضاري يقوم على منهج الجمع بين التراث والتجديد بكيفية جديدة لحل أزمة العالم العربي والإسلامي، مشروع لا يسمح للتراث بالسيطرة المطلقة ولا لسيطرة العصر بمفرده والغرض من تجديد التراث ليس المحافظة عليه وعلى أصالته بل من أجل المحافظة على الإستمرار في الثقافة الوطنية وتأصيل الحاضر ودفعه نحو التقدم والمشاركة في قضايا التغيير الإجتماعي، فالتراث هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية وقومية والتجديد هو إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد والأصالة أساس المعاصرة والوسيلة تؤدي إلى الغاية، التراث هو الوسيلة والتجديد هو الغاية وهي المساهمة في تطوير الواقع وحل مشكلته والقضاء على أسباب معوقاته وفتح مغاليقه التي تمنع أية محاولة لتطويره[xxiii] ،حيث يرى حسن حنفي "أن الأصالة هي الفكر على مستوى التاريخ والمعاصرة هي الواقع على مستوى السلوك، الأصالة أساس الفكر والمعاصرة إحساس بالواقع، والمشكلتان وجهتان لمنطق واحد وهو منطق التجديد الذي تعرضه الأصالة والمعاصرة على المستوى الأفقي والذي يعرضه الفكر والواقع على المستوى الرأسي ومن ثم تصبح الأصالة والمعاصرة منطق الالتزام بقضايا العصر، مع أكبر ضمان ممكن من حيث إمكانيات الحل والتطبيق"[xxiv] .

فالتراث هو المادة الحية التي من خلالها نفسر الواقع و مادة لإعادة بناء الإنسان، فالتراث ما زال حيا في شعور العصر ووجدانه ويمكن للتراث أن يؤثر في العصر ويكون محددا وموجها للسلوك فيه، " وتجديد التراث إذا ضرورة واقعية ورؤية صائبة للواقع، فالتراث جزء من مكونات الواقع وليس دفاعا عن موروث قديم، التراث الحي يفعل في الناس ويوجه سلوكهم

وبالتالي يكون تجديد التراث هو وصف لسلوك الجماهير وتغييره لصالح قضية التغيير الإجتماعي... تجديد التراث هو إطلاق لطاقات مختزنة عند الجماهير بدلا من وجود التراث كمصدر الطاقة المختزنة... تجديد التراث هو حل لطلاسم القديم وللعقد الموروثة والقضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغيير جذري للواقع فهو عمل لابد للثوري من أن يقوم به[xxv]، فالتراث والتجديد هو إعادة كل الإحتمالات القديمة بل وضع إحتمالات جديدة وإختيار أنسبها لحاجات العصر، فالاختيار المنتج الفعال المجيب لمطالب العصر هو الإختيار المطلوب ولا يعني أن باقي الإختيارات خاطئة بل يعني أنها تظل تفسيرات محتملة لظروف أخرى وعصور أخرى ولت أو ما زالت قادمة[xxvi]. وبالتالي فإن تجديد التراث يعطي لثقافاتنا الوطنية وحدتها الضائعة وتجانسها المفقود، إذن للتراث والتجديد ثلاث ميادين

– تحليل الموروث القديم وظروف نشأته ومعرفه مساره في الشعور الحضاري.

– تحليل الأبنية النفسية للجماهير ومعرفة علاقتها بالموروث القديم والأوضاع الإجتماعية الحالية.

– تحليل أبنية الواقع ومعرفة مدى نشأتها من الواقع ذاته ودرجة تطوره أم أنها ناشئة من الأبنية النفسية للجماهير الناشئة بدورها عن الموروث القديم[xxvii] .

**2– أنسنة التراث:**

عهد حسن حنفي في مشروعه التجديدي إلى تحويل الوحي إلى علم إنساني شامل و يتحول الوحي من كونه مادة لاهوتية إلى مادة إجتماعية ومن علاقات غيبية إلى علاقات مرئية،" فالوحي مجموعة مواقف إنسانية نموذجية تتكرر في كل زمان ومكان "[xxviii] لذلك عمد حسن حنفي إلى تعريف الوحي بتعريفات مادية إذ الوحي "علم مستقل بذاته يستنبطه الإنسان ويضع قواعده وأصوله لا هو بعلوم الدين ولا هو بعلوم الدنيا، هو علم المبادئ الأولى التي تقوم عليها العلوم جميعا وهي مبادئ عقلية وطبيعية شعورية ووجودية في آن واحد"[xxix] وبهذا فالوحي ظاهرة شعورية خالصة يكتشف بها الإنسان المعاني في نفسه يقول " الكلام تجربة شعورية خالصة يكتشف بها الإنسان المعاني في نفسه بناء على أفعال الشعور من شك وظن وإعتقاد ويقين وإستفهام وتفكير وتدبر"[xxx]

ووفقا لما تقدم يصبح الوحي علما إنسانيا وليس وحيا ربانيا يقول "وذلك لأن الوحي بمجرد نزوله يصبح علم إنسانيا ويتحول بمجرد قراءته وفهمه إلى علوم إنسانية"[xxxi] فالقرآن الكريم إختص بقيم أخلاقية وروحية عليا لا تتأثر بتغير الأزمان بل تغيره وتؤثر فيه وهنا يؤكد حنفي على ضرورة الإختلاف في التراث السائد والإنتقال من الإيمان والنظر والعقيدة إلى العمل والممارسة والثورة ومن الجبر والإكراه والقدر إلى خلق أفعال الحرية والتحرر وهنا يستطيع العقل التحرر من الأفكار السابقة والعادات والأفكار الموروثة وتحول الماهيات إلى أوضاع إجتماعية ومواقف إنسانية وقد أكد حسن حنفي على ضرورة إتباع المنهج الظاهراتي في تحليل النص الديني.

**3- تطبيق المنهج الظاهراتي في قراءة التراث :**

قبل الحديث عن المنهج الذي إتبعه حسن حنفي في النهوض بمشروعه الفكري كان لابد من تبيان موقفه من سابقيه إذ حسبه أن هؤلاء اتبعوا منهجا مخالفا لموضوع الدراسة كأن يستخدموا المنهج المادي على الظواهر الميتافيزيقية كالوجود مثلا، وهذا ما أسماه بخطأ "النعرة العلمية" وهذا ما يبعدهم عن الوصول إلى الموضوعية والحقيقة لقوله " ولعل من أبجديات أزمة المنهج في الفكر العربي الإسلامي إهتزاز الأدوات المستخدمة وهشاشة القوالب المستعارة ويعكس هذا كله طغيان الضبابية في المفاهيم السائدة وعدم الدقة في المصطلحات المتداولة، فنحن لم نتفق بعد حتى على المظلة التي ندرس تحتها ونعني بها الفكر العربي الإسلامي"[xxxii]. أما الخطأ الثاني يتمثل في النزعة الخطابية ،التي تسيطر على أغلب الدراسات التي تعطي الأولوية للوحي على التاريخ فيغلب عليها نوعا من العاطفة والإنفعال (الجانب الوجداني) فتكون بذلك مضاد للنزعة العلمية وهي نتيجة ضعف التكوين النظري للباحث، وما يميز هذه المناهج أنها مجرد تحصيل حاصل ومن خلال هذه الإنتقادات الحادة للمناهج السابقة يرى حسن حنفي أن المنهج المناسب في فهم التراث والتجديد هو المنهج الظواهري الفينومينولوجي.

وهنا وجب علينا الرجوع إلى ظاهرية هوسرل Husserl (1859-1938) إذ يكشف حسن حنفي في كتابه "الظاهريات وأزمة العلوم الأوربية" عن الظروف التي دفعت بهوسرل إلى كتابة مؤلفه" أزمة العلوم الاوربية والفينومينولوجية الترنسندنتالية " وهي ظروف تتعلق بأزمة العلوم الإنسانية وتخلفها عن نظيرتها الطبيعية، إذ تكشف هذه الأزمة أن الإنسان الغربي في

مطلع القرن العشرين –لم يعد محور إهتمام العلوم – "إن القرن العشرين هو بداية أزمة العلوم الإنسانية وبداية الضمير الأوربي نفسه، إذ كان بمثابة مرآة عكست انتصارات القرن السابق وصورتها بوصفها عقبات وخيمة تهدد كيان العلم وتنذر الحضارة الأوربية بالخطر"

[33] أزمة العلوم إذن هي أزمة الإنسان المعاصر الذي تحول إلى شيء يخضع للتجربة كبقية أشياء العالم المادي، وهنا يقول هوسرل في كتابه أزمة العلوم الأوربية "لقد تبين أن هذا المنهج لم يحقق نجاحات أكيدة إلا في العلوم الوضعية، أما في الميتافيزيقا وبالتنيجة في المشاكل الفلسفية بالمعنى الخاص، فإن الأمر خلاف ذلك"[34] فأزمة العلوم الأوربية عند هوسرل ستتحول إلى أزمة العلوم الإسلامية لدى حسن حنفي، لذا فمشروع حسن حنفي –في الأساس – هو كيفية إعادة بناء العلوم القديمة وإحياءها لتتوافق مع مستجدات العصر وتصبح فاعلة في الحياة المعاصرة، وهو هدف إصلاحي في التاريخ –أيضا– كما كانت الفينومينولوجيا هذه الأخيرة هي منهج في الوصف الفلسفي ينحصر في وصف الظاهرة أي وصف ما هو معطى للوعي على نحو مباشر، وينبع البحث الفينومينولوجي الموجه نحو الحقائق والماهيات الخالدة في آخر المطاف من وجودنا الزماني والتاريخي، فالفيننومينولوجيا لا تهتم بآراء الآخرين بل تتجه إلى الأشياء ذاتها وهي لا تهدف إلا الى الماهية أي أنها فلسفة لا تحاول أن تبعث المثالية في الموجودات وإنما تحاول أن تأخذ المثالي في اعتبارها وتكتفي به بوصفه كل الوجود الذي تحتاج إليه.[35]

على هذه الشاكلة كان حسن حنفي يتعامل مع التراث، فقد استعمل المنهج الفينومينولوجي بالعودة إلى تفكيك التراث الإسلامي وذلك بالعودة إلى محاوراته ومساءلته من خلال النصوص الدينية لا بالشكل الذي يجعل من هذه النصوص مضى عليها مئات السنين بل بالشكل الذي يجعلنا نناقشها سطرا سطرا بحيث تصبح إشكالاتها آنية راهنة حية يصل بينها عمق الحوار الذي يبعثها من سباتها من جديد وعلى هذا المنوال تعامل حسن حنفي مع التراث، فبين أن المستويات الحديثة للتحليل تعطينا ميدانا غنيا تظهر فيه خصوبة التراث وأهم هذه المستويات هو التحليل الشعوري وعلى هذا النحو تغدو قراءة الحاضر ممارسة تأويلية تشترط تأويل التراث باعتباره أشياء وتصورات تعمل من خلال الشعور ولا تأخذ معناها إلا من خلاله، بوصفه جملة عمليات تتداخل فيها التجربة الشعورية بالواقع ،وبذلك يتشكل موضوع المعرفة التي تقع عليها عن طريق الوصف الظاهراتي للظاهرة الفكرية حيث أن مهمة الفينومينولوجيا هي العثور على تكوين الشعور الباطني في علم النفس وذلك لأن الفينومينولوجيا علم للشعور الباطني قائم على

تحليل المعاني باعتبارها ماهيات تدرك بالحدس في رؤية واضحة ومن ثمة تصبح شرطا لقيام علم النفس بل ولقيام كل علم إنساني فيكتسب –مثلا– النص معناه عن طريق منهج التفسير والفهم هذا ويحول المعنى إلى نظرية عن طريق البناء العقلي لها وبعد ذلك تقيم الظاهرة بإرجاعها إلى مصدرها الأول وفيما يخص الفكر العربي الإسلامي بوصفه تعبيرا عن الوحي فالمنهج الملائم للاستعمال هنا ذو جانبين :الأول يتابع خروج الظاهرة الفكرية من النص وهذا هو الوصف الظاهراتي التكويني الذي يبين النشأة والتطور، والثاني يرجع الظاهرة الفكرية إلى النص من جديد لتصفيته مما علق فيه من آثار ثقافية وأحكام وهذا هو الوصف الظاهراتي الارتدادي. وفي هذا الاطار يعنى المنهج الفينومينولوجي باللغة، وهذا ما يشكل خصوصية التأويل التراثي لدى حسن حنفي، ولأنه يرى اللغة لدينا قاصرة لأنها تشخيصية وتنزيلية وجب تفجيرها لتجاوز القصور الشعوري وإعطاء مبادرة لوظيفة التأويل فأسبقية اللغة في المنهج لدى حسن حنفي معناه أسبقية الوظيفة الدلالية، وهنا يتضح هدف الفينومينولوجيا وهو دمج الذات بالموضوع عبر الشعور المؤسس على اللغة بوصفها توسطا يقول حسن حنفي" الألفاظ التي يقبلها العصر هي التي يمكن استعمالها بل إن في العصر ألفاظ تجري مجرى النار في الهشيم مثل الأيديولوجيا والتقدم والحرية والتغيير والتحرر والجماهير التي يمكن أن تعبر عن ثقافة وطنية يمكن تكوينها، لا يعني ذلك تعلق الجماهير أو اللغة على أوتارها الحساسة بل تعني أخذ العرف في الإعتبار والمعنى العرفي جزء من معنى اللفظ عند القدماء كما جرت العادة على نقل العرف من المعنى إلى اللفظ ويعني أيضا تطويع اللغة في نشأتها واختيار ألفاظها إلى متطلبات الواقع حتى لا يقع في إنعزالية الثقافة بصورية اللغة"[36] .

فالتراث ما هو إلا نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره وليس متحف للأفكار نفتخر به، بل هو ذخيرة قومية يمكن استكشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الانسان وعلاقته بالأرض.

يفضل حسن حنفي استعمال اللغة الأيديولوجية على اللغة الإلهية ،لأن اللغة الأيديولوجية باستطاعتها أن تعبر عن المعاني التي يحملها الاسلام دون تشويه يقول " لقد كانت اللغة الدينية ضرورة أولية لنشأة الحضارة ولكن ما إن تقدمت الحضارة حتى بدأت اللغة الدينية تتراجع "[37] .وتأتي محلها لغة عقلية خالصة كما هو الحال في علم أصول الدين المتأخر ولما كان لفظ الدين قاصرا عن آداء المعنى فإن لفظ أيدلوجية أقدر منه على التعبير عن الدين المعنى وهو الإسلام . هكذا رأى حسن حنفي في اللغة القديمة

مصدرا للجمود ، وتوقف التقدم وأدركوا عن تبليغ المعنى الصحيح كما كان شأنها في القديم مما يؤدي الى عجز المتلقي عن فهم اللغة القديمة لأنها لا تستجيب لمقتضيات الواقع لذلك كانت الدعوة إلى التجديد بتطبيق المنهج الظاهراتي لدراسة اللغة .

وذلك من خلال تجديد الألفاظ القديمة بأخرى جديدة تحمل المعنى نفسه وفي نفس الوقت تتماشى مع اللغة المتداولة في عصرنا الحاضر.

**خامسا: مشروع حسن حنفي بين المؤيد والمعارض**

لقد أثارت كتابات حسن حنفي نقاشات حادة بين مؤيديه ومعارضيه، فتباينت العديد من الجبهات منها الإسلامية والمركزية والتفكيكية والتحليلية وغيرها، فمن المفكرين المؤيدين لأفكار حسن حنفي التحررية هو محمد عابد الجابري وعلي حرب، إذ حمل هؤلاء المفكرون على عاتقهم ضرورة الدعوة إلى التحرر من الغرب وحضور الوعي الفلسفي والتاريخي لتقوية الأمة، فالجابري يرى ضرورة الانفتاح على الآخر ولكن بشرط عدم التقليد والانسلاخ والمحافظة على الهوية الوطنية والقومية إذ يتبنى النقد في كل التعاملات مع التراث ونفس الشرط نجده في كتابات حسن حنفي إذ يرى أن الممارسة النقدية ضرورية في جميع المجالات[38] ومع هذا التوافق بين المفكرين إلا أنه يوجد نقاط إختلاف بينهما حول مفهوم العقل العربي فحسن حنفي يعتبره مفهوم غريبا نشأ في الغرب في القرن التاسع عشر ومن البيئة نفسها خرج العقل العربي أما الجابري فيرى أن العقل هو أداة للإنتاج النظري، واتخذ عصر التدوين في القرن الرابع هجري نقطة الإنطلاق في تكوين العقل العربي الإسلامي " فالعقل هو جملة القواعد المستخلصة من موضوع ما أي الموضوع الذي يتعامل الانسان معه "[39] .

ومن المفكرين الذين إنتقدوا حسن حنفي في كتاباته علي حرب الذي رد على كتاب حسن حنفي "مقدمة في علم الاستغراب" إلى عنوان "استغراب أم كهانة " إلا أنه يعترف بأنه مفكر بارز بات غنيا عن التعريف وأنا أعده من الذين يتصدرون الآن الساحة الفكرية في العالم العربي[40].

ومن الانتقادات الموجهة لحسن حنفي أنه لم يستدل بالنص المقدس وهذا ما بينه من خلال كتابه " من العقيدة إلى الثورة " فالعقيدة (التراث) والثورة (التجديد) فالعقيدة إهتمام بالله

والرسول وهذا يجب تجاوزه والثورة إهتمام بالإنسان وهذا الذي يجب أن نشتغل به ونركز إهتمامنا حوله.

– ينظر إلى منهج حسن حنفي على أنه منهج برغماتي فهو يختار من القديم ما يلبي حاجات العصر والتخلي عن التراث القديم وهنا يحتم عليه أن يفصل أجزاء التراث عن الكل الذي نشأ فيه.

– إن المنهج عند حسن حنفي هو الفينومينولوجيا وهي تعني عنده اللغة، هذه الأخيرة التي يجب استبدالها بألفاظ جديدة مسايرة للعصر تحمل المعنى نفسه متناسيا بذلك أن هذا التغيير قد يحدث خللا في المعنى ويخرجه عن سياقه الدلالي.

–ركز حسن حنفي على أسبقية سلطة العقل على النقل دون تأصيل عقلاني لمبررات هذه السلطة وعليه فقد إفترض سلفا أن قوة العقل تفوق قوة النص لأن النص في رأيه لا يثبت شيئا ،بل هو في حاجة إلى إثبات ،في حين لا يقف شيء غامض أمام العقل وبفضل هذا الإجتهاد الغريب "أصبح النص مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها" وتكمن خطورة هذا التحليل في ثلاثة قضايا :أولها في جعل الأحاديث النبوية كلها ظنية سندا ومتنا والثانية العقل أساس فهم نصوص الدين والثالثة جعل الواقع أساس الجميع.

## خاتمة:

نستنتج مما سبق أن التراث عند حسن حنفي جزء لا يتجزأ عن الواقع، فهو ليس معتقدات مغلقة على نفسها تتغنى بأمجاد الأجداد بل مخزون نفسي عند الجماهير يعبر عن الواقع الحالي فهو حركة نهضوية فكرية وعملية تحرك التاريخ وتبني الحضارة .

– التراث ليس مخزونا ماديا ولا مجرد كيان صوري بل هو على مستويين مادي وصوري موجه لتوجيه سلوك الناس.

– الجمع بين الماضي والحاضر على أن الحاضر ماض يتحرك والماضي حاضر معاش .

– التراث والتجديد يعطي لثقافتنا الوطنية وحدتها الضائعة وتجانسها المفقود.

– تحويل الوحي إلى علم إنساني شامل والتعبير عن علاقات اجتماعية انسانية.

– الخروج من دائرة العقيدة والاهتمام والنظر إلى دائرة العمل والممارسة والثورة.

– الرجوع إلى حقيقة الأشياء في ذاتها والاعتماد على الوعي المباشر والتجربة الشعورية المستنبطة من المنهج الظاهراتي.

– استعمال اللغة الايديولوجية والابتعاد عن اللغة الدينية كونها قاصرة على التعبير عن مستجدات العصر.

**هوامش الدراسة**

* حسن حنفي: مفكر مصري يقيم في القاهرة، أستاذ جامعي واحد من أهم منظري تيار اليسار الإسلامي، وأحد أهم المفكرين العرب المعاصرين من أصحاب المشروعات الفكرية العربية، مارس التدريس في عدد من الجامعات العربية، ترأس قسم الفلسفة في جامعة القاهرة وحاز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون، عمل مستشارا علميا في جامعة الأمم المتحدة، له العديد من الكتابات منها سلسلة "موقفنا من التراث القديم والتراث والتجديد" (أربع مجلدات)، ومن العقيدة إلى الثورة، ودراسات اسلامية ومن النص إلى الواقع.

---

1 ابن منظور: لسان العرب مادة ورثة، ص 199-200

2 انطوان نعمة وآخرون :المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق ،بيروت ،ط2 سنة2001، ص192

3 محمد عابد الجابري: التراث والحداثة–دراسات ومناقشات–المركز الثقافي العربي–بيروت – لبنان ط1–1991–ص45

4 فارح مسرحي: الحداثة في فكر محمد أزكون–مقربة أولية، منشورات الاختلاف–الدار العربية للعلوم–ط1–الجزائر–2006– ص90

5 فهمي جدعان: نظرية التراث، دار الشروق، ط1، 1985، ص71

6 ربيحة بزان: جدل التراث والحداثة في الخطاب النقدي عند جابر عصفور، مذكرة لنيل شهادة الماستر، إشراف محمد زلاقي، سطيف ص50

7 طه عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، لبنان، ط2، د س، ص19

8 حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 2005، ص13

9 المصدر نفسه، الصفحة نفسها

10 محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، ص46

11 المرجع نفسه، ص47

12 المرجع السابق، الصفحة نفسها

13 المرجع نفسه، ص59

14 طه عبد الرحمان، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، جمع وتقديم رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والابداع، ط1، بيروت، 2015، ص 50-52

15حسن حنفي: التراث والتجديد، المصدر السابق، ص14

16 المصدر نفسه، ص19

xvii حسن حنفي: هموم الفكر والوطن، ج1، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ، ص343

18 حسن حنفي: دراسات فلسفية، مكتبة أنجلو مصرية، القاهرة، ص109

19حسن حنفي: قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص13

20 حسن حنفي: من منهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط1، 2004، ص279

21 قيس خزعل جواد، الدين والتراث والثورة في فكر حسن حنفي، مجلة الوحدة، الفكر القومي للثقافة العربية، 1985، ص125

22 فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الاسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1981، ص62

23 حسن حنفي ، التراث والتجديد، ص13

24 حسن حنفي، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، ص50

25 حسن حنفي، التراث والتجديد، ص19

26 المصدر نفسه، ص20

27 المصدر نفسه، ص62

28 من العقيدة الى الثورة: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص78

29 المصدر نفسه، ص63

30 المصدر نفسه، ص473

31 المصدر نفسه، ص21

32 عبدالرزاق قسوم: مدارس العربي الاسلامي المعاصر، تأملات في المنطق، عالم الكتب للنشر، ط1997،1،ص16

33 بدر الدين مصطفى قاسم، الظاهريات في فكر حسن حنفي، مجلة مؤمنون بلا حدود، عدد29، جوان2017

34 إدموند هوسرل، أزمة العلوم الأوربية والفينومينولوجية الترنسندنتالية، ترجمة: اسماعيل المصدق، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2008، ص 50

35 عبد الفتاح الديدي، الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص32

36 حسن حنفي: التراث والتجديد، ص101

37 المصدر نفسه، ص98

38 حسن حنفي وآخرون: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، أعمال الندوة الفلسفية، القاهرة، ط1، 2005، ص20-21

39 محمد عابد الجابري: نقد العقل العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، ط1، 1991، ص13

40 علي حرب: الحقيقة والنص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993، ص 33